تاريخ المكتبات فى مصر : العصر المملوكى(*)

عرض وتحليل

مصطفى حسين

مكتبة جامعة الاسكندرية

لا جدال فى أهمية تاريخ الكتب والمكتبات بالنسبه لقراء الشعوب العربية ـ فهو.. فوق أهميته الثقافية ـ يعتبر موضوعا حيوياً لهذه الشعوب، فى نهضتها الحديثة، لاسيما ونحن نعلم أن الأمم الأوروبية، وأمريكا، قد قامت نهضتها جميعاً على دعائم من العلم والثقافة ونشر المكتبات، مما قضى على الجهالة، ومحا الأمية فيها، وحولها جميعا إلى زعامة المدنية والتقدم فى العصر الحديث.

وليس هناك شك فى أن تاريخ الكتب والمكتبات، إنما هو تاريخ الفكر الإنسانى، فالمكتبات بما تحتويه من أوعية للمعلومات ـ أيا كانت مادتها، وأشكالها ـ هى الوعاء الذى حفظ التراث الإنسانى، ونقله من جيل إلى جيل، ليقرأه، ويستوعبه، ومن ثم يضيف إليه، فيتطور الفكر، وتتقدم الحضارة.

وإذا كانت هذه الحقيقة العلمية تنطبق على تاريخ المكتبات على إطلاقه، فإنها تعبر بصفه خاصة على التجربة الإسلامية العربية فى مجال المكتبات، ذلك بأن العرب كانوا على مدى عشرة قرون كاملة، هم رواد الحضارة والفكر الإنسانى، وظلت لغتهم لغه العلم دولياً، وظل انتاجهم الفكرى هو المرجع المعتمد فى التدريس والتعليم فى أوروبا حتى القرن الماضى ومن هنا تبدو أهمية دراسة تاريخ المكتبات الإسلامية، لاسيما وأن هذا التاريخ يقدم لنا معيناً لا ينضب من التجارب والخبرات التى يمكن أن تعينا على فهم الحاضر، وتفسير ظواهره، وبل والتنبؤ بالمستقبل كذلك.

* السيد السيد النشار. ـ تاريخ المكتبات فى مصر: العصر المملوكى. ـ القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٣ . ـ ٣٣٥ص؛ ٢٤سم.

وعلى الرغم من أن العرب قد كتبوا وأبدعوا فى كل فنون المعرفة البشرية إلا أنه لم يصلنا عن المكتبات فى العصر الإسلامى الوسيط، مصنف خاص بتاريخ المكتبات، ومواردها المادية والبشرية، ونظمها الفنيه والإدارية، وخدماتها المكتبية والتعليمية، يمكن أن تعتمد عليه فى إعادة كتابتنا لهذا التاريخ، وربما يكون السبب فى ذلك أن هذا الفن لم يعرف عند العرب إلا متأخراً.

ومن هنا يأتى دور الباحثين فى هذا المجال وما فيه من معاناة ومشقه فى التنقيب فى بطون الوثائق الوقفية، والمصادر المخطوطة والمطبوعة إلى غير ذلك من أوعية المعلو مات التى تعالج التاريخ العام للعصر الإسلامى الوسيط بكل جوانبها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافيه.

- ولعل من أهم المؤلفات التى تصدت لدراسة تاريخ المكتبة العربية والإسلامية، هذه الدراسة الرائدة للدكتور «يوسف العشر» ـ رحمة الله ـ بعنوان «دور الكتب العربية العامة، وشبه العامة لبلاد العراق والشام ومصر فى العصر الوسيط»

- يُعد كتاب يوسف العشر من الكتب الأساسية والهامة فى مجال المكتبات وقد أعده فى الأصل كرسالة علمية تقدم بها للحصول على درجة الدكتوراه من إحدى جامعات فرنسا «السربون» منذ ما يقرب من حوالى خمسه عقود، وبالتحديد فى سنة ١٩٤٩، ثم قام المعهد الفرنسى الشرقى بدمشق بإعادة طبعه فى سنة ١٩٦٧، وفاءً لحق الرجل وتخليداً لذكراه.. ولا شك ان ترجمة هذا الكتاب من الفرنسيه إلى اللغة العربية التى قام بها يد المترجمان نزار أباظه، ومحمد صباغ أضافت الكثير من المعلومات ذات القيمة فى هذا المجال، لاسيما وأنه أشار فى المقدمة إلى كم هائل من المصادر التى أرخت للموضوع.

- ومن بين المؤلفات العربية الرائدة والأساسية أيضاً فى مجال المكتبات وتاريخها.

* يحيى محمود ساعاتى.. الوقف وبنية المكتبة العربية: استبطان للموروث الثقافى/

* الفـردهيسيل. ـ تـاريـخ المكتبات؛ تـرجـمة د/ شعبان عبد العزيز خليفة.

* عبد الستار الحلوجى . ـ المخطوط العربى لمحات من تاريخ الكتب والمكتبات.

- والكتاب الذى نقوم بعرضه قدم أصلاً كاملاً لنيل درجة الماجستير فى الآداب من جامعة الإسكندرية تحت إشراف الاستاذ الدكتور جوزيف نسيم يوسف ومنح صاحبها الدرجة بتقدير ممتاز.

- ويعتبر هذا الكتاب ـ بحق ـ واحداً من الكتب ذات الأهمية فى تاريخ المكتبات العربية والإسلامية عامة وتاريخ المكتبات فى مصر بصفة خاصة. ويرجع ذلك إلى قلة أو حتى ندرة الدراسات العربية الجادة التى تؤرخ لمكتباتنا من قبل متخصصين فى التاريخ أو فى علم المكتبات.

- ويعتمد الكتاب **على منهج** بحثى جيد هو **منهج البحث التاريخى** الذى يقوم أساساً

على جمع المعلومات والبيانات ذات الصلة بالموضوع من مصادره الأصلية والتى أرخت للعصر المملوكى وتشتمل على كتب التاريخ والتراجم والسير والطبقات وكتب الرحلات والخطط، فضلاً عن الوثائق الوقفية، مع التركيز على كل ما له صلة بالمكتبات ومواردها ونظمها وخدماتها. هذا بالإضافة إلى المراجع الحديثة التى تناولت تاريخ الكتب والمكتبات فى العصر الإسلامى الوسيط.

والكتاب يتميز بأسلوبية السليم، ومنهجه العلمى الصحيح وتماسك بنيانه، وقد حرص المؤلف على تغطية موضوع دراسته، وهو المكتبات فى مصر فى العصر المملوكى، تغطية شاملة، وتتابعت الفصول تتابعاً منطقياً، وهى تعرض الموضوع بطريقة واضحة... ولم يستخدم المؤلف أسلوب التسلسل الزمنى فى العرض وإنما استخدم أسلوب المعالجة الموضوعية لجوانب المكتبات المختلفة، وهو الأسلوب المألوف بالنسبة للمشتغلين بالمكتبات.

- ويشتمل الكتاب على خمسة فصول، تسبقها المقدمة، ثم الدراسة التحليلية لأهم وثائق البحث ومصادره، ثم التمهيد وبآخره الخاتمة، وثلاثة ملاحق تلقى المزيد من الضوء على قضايا البحث، وقائمة ببليوجرافية بالوثائق والمصادر والمراجع التى أعتمد عليها وأفاد منها فائدة واضحة.

- **يبدأ الكتاب بدراسة تحليلية وعرض** لأهم مصادر البحث ووثائقه ومراجعه، وهذا يشير إلى اطلاع الباحث الواسع على عدد كبير من المصادر القديمة والحديثة.

ويذكر الباحث أنه لم يصلنا عن المكتبات فى العصر الإسلامى الوسيط بعامه وعصر المماليك بصفة خاصه مصنف قائم بذاته بتاريخها ومواردها ونظمها وخدماتها ومصائرها، وتأتى الوثائق المملوكيه فى المقام الأول من الأهمية، وذلك لأنها أمدت الباحث بمادة وفيرة من الطراز الأول عن النظم والموارد والإجراءات والخدمات فى المكتبات المملوكية، ومرجع ذلك أيضاً أن هذه الوثائق مصادر نزيهة لا شك فى صحتها، يستقى منها الموثق والمؤرخ معلوماته وهو مطمئن إلى صحة ما جاء بها لأنها لم تكتب أصلاً بغرض التأليف التاريخى، لهذا انتفت عنها الأهواء الذاتية.

وتأتى المصادر العربية، من خطيه مطبوعة، معاصرة ومتأخرة، فى المرتبه الثانية بعد الوثائق، لأنها ضنت علينا بالكثير من المعلومات المتعلقة بموضوع البحث، وجاءت المصادر العربية لسد الفجوات واستكمال الصورة، وتدعيم الآراء والنظريات.

وقد رتب المؤلف مصادر بحثه هذه حسب أهميتها بالنسبة لموضوع البحث مع مراعاة التسلسل الزمنى لها فى نفس الوقت ، ويأتى فى مقدمتها كتاب «**تذكرة السامع والمتكلم فى أدب العالم والمتعلم**» **لبدر الدين بن جماعة**.

- ويبدأ الباحث كتابه بفصل تمهيدى بعنوان «**أحوال المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك**».

يتحدث فيه بتركيز عن الأحوال السياسية والاقتصادية والأجتماعية والعلمية فى مصر فى عصر سلاطين المماليك، وكيف أنها تركت

بصماتها على الحركة المكتبية آنذاك، وخير ما يعبر عن ازدهار الحياة العلمية فى عصر سلاطين المماليك هو العناية بإنشاء المؤسسات التعليمية والتربوية من مدارس ومكاتب ومساجد وبيمارستانات، فضلاً عن مؤسسات الصوفية، الأمر الذى ترتب عليه ازدهار المكتبات بمختلف أشكالها، وبما حوته من نفائس المخطوطات.

ـ والآن هيا بنا لنخوض فى أعماق الكتاب لنتناوله بالعرض والوصف والتحليل يتحدث الفصل الأول وهو بعنوان «**المكتبات فى مصر فى عصر سلاطين المماليك: نشأتها وأنواعها**».

حيث يتناول ظروف نشأة المكتبات فى مصر الإسلامية، موضحاً أن المكتبات المملوكية هى امتداد طبيعى للمكتبات فى العهود السابقة عنها وأن مصر بحكم موقعها الجغرافى والاستراتيجى وتراثها الحضارى الممتد عبر القرون، كانت مركز إشعاع فكرى وثقافى ومنارة للعلم والمعرفة منذ أقدم عصورها: فلا عجب أن تزدهر فيها الحركة المكتبية على امتداد تاريخها الطويل، ولا عجب أن يهتم أولو الأمر والمسئولون فيها بإنشاء المكتبات التى تضم الآلاف المؤلفه من الكتب فى مختلف العلوم والفنون لينهل منها العالم المتخصص والقارىء العادى. ولا عجب أيضاً أن تستمر وأن تتواصل هذه الإشراقه العلمية حتى عصر المماليك ليكون امتداداً طبيعياً يقيمون فوقه صرحهم العلمى الضخم.

ثم يطوف بنا الباحث ليعرض لنا أنواع المكتبات المملوكيه وتسمياتها لقد شهد عصر المماليك فى مصر أنواعاً عديدة من المكتبات، التى تتباهى بها الدول المتقدمة فى العصر الحديث، بدءاً بالمكتبات الخاصه ومروراً بمكتبات المساجد والمدارس والبيمارستانات والخوانق والربط والزوايا وانتهاء بمكتبات الترب والمدافن والقباب.

ولقد توصل الباحث إلى نتيجة هامة هى أن المكتبه وجدت داخل كل منشأة، كبيرة كانت أم صغيرة، وأن الكتاب والمكتبة كانا جزءاً لا يتجزأ من حياة الإنسان وقتذاك.

ويأتى الفصل الثانى والذى هو بعنوان «**الموارد المادية والبشرية فى المكتبات المملوكية**».

ليناقش عدداً من القضايا الهامة مثل المبانى والتجهيزات من حيث الموقع ومواصفاته والأثاث والأدوات الخاصة بحفظ الكتب، وصناديق الكتب ورفوفها ـ أدوات الكتابة ـ أدوات إعداد الكتب وتسجيلها وصيانتها والموارد الماليه ومصادرها ووجوه الإنفاق، والعاملون فى المكتبات وفئاتهم ومشاكلهم، والمجموعات المكتبية.

وقد عرفت المكتبات المملوكية ثلاث فئات من العاملين هم أمناء المكتبات والمناولون والوراقون.

يتبين مما سبق أن المماليك قد وفروا لمكتباتهم جميع الموارد المادية والبشرية اللازمة لتقديم خدماتها لكافة فئات الشعب. فوفروا المبنى والتجهيزات المناسبة وخصصوا الأموال الوفيرة، وزودوها بالعاملين على اختلاف فئاتهم النوعية وكانوا جميعاً رجال أدب وعلم وفضل، كما حرصوا على تزويد مكتباتهم بالآلاف المؤلفة من الكتب والمخطوطات فى شتى أفرع المعرفة البشرية، ولضمان الاستفادة مما تحويه هذه المكتبات فى أسرع وقت وأقل مجهود، كذلك أهتم المماليك

بالناحية التنظيمية والإجراءات الفنية للمكتبة ليضمنوا نجاح مكتباتهم فى تأدية رسالتها على الوجه الأكمل، وهذا هو محور حديث الفصل الثالث.

الفصل الثالث ويتناول «**النظم والإجراءات الفنية فى المكتبات المملوكية**».

ويناقش المؤلف فيه موضوعين هامين: أولهما بناء وتنمية المجموعات المكتبية، وثانيهما التنظيم والإعداد الفنى للمكتبة.

والمقصود بالنظم والإجراءات الفنية، تلك الوظائف التى تخضع فى أدائها لقواعد وإجراءات معينة ومقننة، تهدف إلى تزويد المكتبة بمجموعات الكتب المناسبة، ثم تنظيمها وإعدادها فنياً ليسهل تناولها والإفادة منها. وفيما يتعلق بالموضوع الأول: فقد توصل المؤلف إلى نتيجة هامة مؤداها أن المكتبات فى مصر إبان العصر المماليكى قد اعتمدت على روافد أربعة فى تزويدها بالكتب، يأتى فى مقدمتها الشراء والوقف، حيث كانا المصدرين الرئيسيين يدعمهما مصدران آخران هما الإهداء والنسخ ولقد أثبت أيضاً ان هذه المكتبات عرفت سياسة التزويد متمثلة فى وثائق الوقف التى كانت بمثابه لوائح تنظيمية لها. وبفضل هذه السياسات أقتنت هذه المكتبات الكثير من المؤلفات.. ولم يكن لمثل هذه المكتبات أن تؤتى ثمارها المرجوه وهى الإفادة من محتوياتها بالقراءة والإطلاع ما لم تكن على درجة كبيرة من الإعداد الفنى والتنظيم، ويقصد به هنا كافه الإجراءات الماديه والفنية المتعلقة بتسجيل الكتب وفهرستها، وتصنيفها وترتيبها على الرفوف وقد استنتج المؤلف من خلال نصوص الوثائق التى أطلع عليها أن كل شيء فى المكتبات المملوكية كانت له قواعد وآداب وإجراءات معينة، حتى تصفيف الكتب، أو تنضيدها، كما استنتج أن هناك علاقة وثيقة بين التصنيف والتنضيد، وأنهما أقيما على أساس فلسفى ونظام دقيق، وهو شرف أو منزله العلوم والمعارف وكذلك منزلة المؤلفين، كما أن هذه القواعد لم تغفل الإجراءات العلمية البسيطة ومنها تنضيد المؤلفات حسب حجمها حرصاً على سلامتها فلا تعوج أو تسقط فتمزق، وعلى سلامة من يتعامل معها كذلك.

وهكذا يتبين لنا أن المكتبات المملوكيه لم تكن مجرد مؤلفات كثيرة حفظت فى خزائنها، أو على رفوفها فقط، بل كانت مصنفة ومفهرسة بطريقة تيسر إسترجاع أى منها فى أقل وقت وبأيسر الطرق. وقد تجلى ذلك فى إعداد السجلات الخاصه بالتسجيل إثباتاً لملكيتها للكتب ولأغراض الجرد والمراجعة. كما أستخدمت قواعد ونظم معينه لترتيب المجموعات وتنظيمها ببليوجرافيا. كذلك حرصت المكتبات على أن تكون مجموعاتها فى حالة جيدة دائما، وذلك من خلال تجليدها وترميمها وصيانتها.. ولم تكن هذه النظم والإجراءات الفنية غاية فى حد ذاتها، ولكنها كانت وسيلة لتيسير سبل الإفادة من المجموعات المكتبية، وهى الهدف المستهدف من إنشاء أى مكتبة، وإن دل هذا على شيء، فإنما يدل على أهمية الكتاب والمكتبات فى مصر إبان الفترة الزمنية موضوع الدراسة.

ـ ونأتى الآن إلى الثمرة التى تقدمها هذه المؤسسات والمرافق وهذا هو مدخل الحديث فى الفصل الرابع والذى يتناول «**الخدمات والأنشطة**

فى المكتبات المملوكية».

ليس ثمة شك فى أن المحك الرئيسى لمدى نجاح المكتبة فى أداء رسالتها هو قدرتها على توفير الكتاب المناسب للقارىء فى الوقت المناسب ومن ذلك تنبثق جميع الإجراءات والعمليات فى المكتبة.

ـ ويتناول هذا الفصل بالشرح والتحليل أنواع تلك الخدمات والانشطه والتى يدخل فى نطاقها مواعيد فتح المكتبة وعدد ساعات العمل بها، وفى الغالب أنه لم تكن هناك ساعات محددة للعمل بالمكتبة، ولكن غالباً ما كان العمل يمتد فيها طوال اليوم من الصباح إلى ما قبل الغروب، وكان هذا يختلف من مؤسسة إلى أخرى، وفقاً للائحة كل منها وشروط الواقف.

كما تحدث عن المستفيدين من تلك المكتبات وفئاتهم، مؤكداً ان انماط الإفادة تعددت بين خدمات الاطلاع الداخلى، والاعارة الخارجية والنسخ، وإرشاد القراء، إلى جانب الخدمات الببليوجرافيه والتعليمية.

ولم تكن هناك شروط مقيدة للاطلاع والنسخ داخل المكتبه، بل كان للفرد الحق فى الاستفادة من هذه الخدمة.

أما فيما يتعلق بتقديم خدمة الإعارة الخارجية، فإن الوثائق المملوكيه تبرز تبايناً واضحاً بين مختلف المكتبات، فقد وضعت بعضها قيوداً لضمان تنظيم العمل، وحسن سيره من ناحية، وللمحافظة على الكتب أو المخطوطات ـ من الضياع وخوفاً عليها من التلف من ناحيه أخرى.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى قدمت الكثير من المكتبات المملوكية خدمات تعليمية للطلاب والمعيدين والعلماء وغيرهم، وذلك من خلال التسهيلات المتمثله فى تقديم الأدوات الكتابيه المجانيه من أوراق وأقلام وأحبار، فضلاً عن عقد الدروس والمحاضرات. هذا ويستخلص المؤلف نتيجة هامة فى تقييمه للدور التربوى للمكتبات المملوكية ان هذا الدور التربوى لأى مكتبه يقاس بمدى مساندتها للعملية التعليمية التى تضطلع المؤسسه الأم بمهامها، وذلك من خلال توفير أوعية المعلومات وتنظيمها بشكل ييسر سبل الإفادة منها، وحث المستفيدين وتشجيعهم على الإطلاع والتثقيف الذاتى، وإعداد العاملين المؤهلين تأهيلاً مناسباً لتقديم خدماتها، ويؤكد أنه هذا الدور التربوى كان يقاس بمدى توفر هذه الأمور فى المكتبة، فإننا نستطيع أن نؤكد أن المكتبات المصرية إبان العصر المملوكى، قد أدت دورها التربوى على أتم وأكمل وجه فى إطار المتطلبات والإمكانيات المتاحة وقتها.

كما حاول الباحث جاهداً أن يبين أوجه الشبه والاختلاف بين المكتبات المملوكية والمكتبات الأوروبية المعاصرة لها، ويبرز هذا سؤالا مؤداه.

ما هو موقع المكتبات المملوكية فى خريطة مكتبات ذلك العصر؟

ويأتى الفصل الخامس والأخير بسؤال يطرح نفسه على بساط البحث ملحاً فى طلب الإجابه عنه: ما هو المصير النهائى الذى آلت إليه المكتبات المملوكية؟

ولقد خرج الباحث بعدة عوامل ساعدت على تدهور المكتبات المملوكية والتفريط فى محتوياتها خاصة فى الفترة الأخيرة من عصر دوله المماليك

الجراكسة، فبعضها دمر بفعل الكوارث الطبيعية من حرق وزلزال، وبعضها الآخر تلف نتيجة عدم الصيانة وعوامل الجو الطبيعية، وشاركت الظروف الاقتصادية الصعبه التى كثيراً ما كانت تمر بها البلاد فى تقويض بنية بعض المكتبات. هذا فضلاً عن سوء إدارة المشرفين على بعض المكتبات وتهاونهم فى اداء رسالتهم هذا من ناحية ومن ناحية أخرى كان لتدهور الأوقاف ونظامها فى أواخر العصر المملوكى أثره الواضح فى تدهور بعض المكتبات نتيجة لفقدها مصدر تمويلها الأساسى وهو ريع الوقت.

يضاف إلى ذلك أن الكثير من المكتبات المملوكية قد تعرض للنهب والسلب والدمار والتفريق إبان الفتح العثمانى لمصر.

ولقد تأثرت المكتبات العثمانية التى ورثت المكتبات المملوكية بها فى نظمها وإجراءاتها الفنية والإدارية، وتعد مكتبة محمد بك أبو الدهب نموذجا للمكتبات المصرية إبان الحكم العثمانى.

ولقد اختتم المؤلف كتابه باستعراض لأهم القضايا والمشاكل التى تعرض لها وأبرز النتائج التى توصل إليها. كما قدم عددا من التوصيات كحلول للمشكلات التى ناقشها. بحكم ارتباط الكتاب بتاريخنا الممتد وتراثنا العربى العريق، وبحكم ارتباطه الوثيق بالحركة المكتبية بمفهومها الدقيق بالنسبة للمعنيين بعلم المكتبات.

- إذا كانت هذه الدراسة قد انصبت على حركة المكتبات فى عصر دولة المماليك فى مصر فقد كانت هناك نهضة مكتبية رائعة خلال فى بلاد الشام فى العصر المملوكى أيضاً، تستحق الدراسة. وكذلك فترة الحكم العثمانى لمصر عقب هزيمة المماليك حتى بداية الحملة الفرنسية. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى. فقد كانت هناك نهضة مكتبية رائعة فى المغرب العربى، وهو يمثل حقلاً خصيباً للبحث، لاسيما التجربة الأندلسية، وهى فى رأينا أخطر من التجربة الشرقية، ذلك لأنها دورة تاريخية متكاملة مرت بالاندلس بفتحها، ثم سقوطها. ومن ثم فالدرس المستخلص من التجربة فى ضوء ما ذكرنا يمكن أن يكون أغنى وأثمن.
- وذيل المؤلف كتابه بثلاثة ملاحق تتصل بالموضوع اتصالاً وثيقاً، يشتمل الملحق الأول على مجموعة لوحات لنصوص وقفية تحمل نص الوقفية، والملحق الثانى عبارة عن جدول بمرتبات أمناء المكتبات فى العصر المملوكى.

أما الملحق الثالث فهو نص لا يزال مخطوطاً وهو ينشر لأول مرة بهذا الكتاب وهو مأخوذ من مخطوط «الجواهر والدرر فى ترجمة شيخ الإسلام بن حجر» وهكذا فإن الكتاب يقدم صورة موثقة لحركة المكتبات فى العصر المملوكى، وهو بمثابه مصدر لا غنى عنه لدارسى تاريخ المكتبات فى مصر.

- وبقيت كلمة أخيره نقر فيها أننا أمام بحث علمى أكاديمى جدير بالقراءة، ويعتبر هذا الكتاب بحق إضافة لها وزنها إلى الدراسات المتعلقة بالحركة المكتبية فى العالم العربى بعامة وفى مصر على وجه الخصوص ومن حقنا أن نفخر بهذا الكتاب، ومن واجبنا ان نقدم الشكر والتحيه والتقدير لمؤلفه، لما بذله من جهد فى إخراج وإمداد هذا العمل العلمى.

obeikandl.com